جامعه الملك سعود
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة الآداب
ردمد (ورقي):3620 – 1018
ردمد (النشر الإلكتروني): 8339-1658

King Saud University
College of Humanities and Social Sciences
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3620
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة الآداب، مج (35)، ع (3)، ص ص 191-209، جامعة الملك سعود، الرياض (2023م/1444هـ)
Journal of Arts, Vol. 35 (3), pp 191-209, © King Saud University, Riyadh (2023 /1444H.)

الجريمة في الشعر العربي القديم: دراسة وصفية تحليلية

زكية بنت عوض بن يوسف الحارثي
أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود، السعودية

(قدم للنشر في 14/ 5/1444هـ، وقبل للنشر في 2/ 7/1444هـ)

الكلمات المفتاحية: الجريمة، الشعر، الشذوذ، السرقة، التمرد.

ملخص البحث: لفظة "جريمة" كل سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية التي وضعت لها الجماعة جزاءات سلبية تحمل صفة رسمية، وتلتصق فعليتها بالمجرم كفاعل انتهك القوانين في مجتمعه متعمدًا مصرًّا، تسوقه عدة عوامل - مجتمعة أو مفردة- هي الدافع لسلوكه الإجرامي، كفشله في التوافق مع القيم السلوكية المقبولة لمجتمعه، أو الصراع في التوفيق بين قيمه الموروثة والمكتسبة، أو ما يعانيه من نتائج التفكك الأسري والاجتماعي، أو وقوعه ضحية للعوامل البيولوجية كالتمييز العنصري بسبب لونه أو تكوينه الخَلقي، أو الفروق الفردية التي تعزله عن الجماعة، وكلها عوامل تخلق فردًا عدائيًّا يجد في الإجرام سبيلًا لشفاء نقصه.تعددت ألوان الجرائم في شعرنا العربي، فهناك الجرائم السياسية كالتمرد على السلطة متمثلة في القبيلة عند الصعاليك، أو الحاكم كتمرد بعض الشعراء على ملوكهم في الغساسنة والحيرة، أو كالثورة والخروج على الحكام المسلمين كعليّ ومعاوية وهارون الرشيد وغيرهم. وهناك الجرائم العسكرية التي صوَّر فيها الشعر المجرم غادرًا قاتلًا لقائده أو خائنًا لقبيلته وجيشه، متخاذلًا عن نصرتهما. وسجَّل الشعر العربي ألونًا من الجرائم الاقتصادية للشطار والعيارين والحرافيش كجماعات فوضوية ضاقت ذرعًا بالحياة، ووجدت في غياب القانون وضعف السلطات فرصة للنهب والتخريب.

Crime in Ancient Arabic Poetry: An Analytical-Descriptive study

Zakia Awad Al Harthy

Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Humanities and Social Sciences, King Saud University, Saudi Arabia

(Received: 14/ 5/1444 H, Accepted for publication 2/ 7/1444 H)

Keywords: Crime, poetry, oddity, theft, rebellion.

Abstract. The word *crime* constitutes every conduct that violates the moral rules for which a community has established official penalties, and is contributed to the doer who doer who deliberately and insistently violates their community's law while being driven by several factors – be they collectivel or individual - that function as the the motive behind their criminal behavior, such as failure to conform to behavioral values that are acceptable in their community, the conflict in reconciling their inherited and acquired values, suffering from family and social disintegration, falling victim to biological factors such as racial discrimination due to color or physical appearnce or individual differences that isolate them from their community. All of which are factors that create an aggressive individual who finds a way in crime to cure their deficiency. There are many forms of crimes in our Arabic poetry. There are political crimes, such as rebellion against authority represented by tribe and practiced by tramps, against the ruler such as that of some poets against their kings in the Ghassanids and Al-Hira, or against Muslim rulers such as Ali, Muawiya, Harun Al-Rashid and others. There are also the military crimes in which poetry has depicted criminals as being murders to their leader and deceivers to their tribe and army, neglecting to support them. Arabic poetry has documented a variety of economic crimes by *Ayyars* (rabbles) and *Harafish* (warriors) as chaotic groups who were fed up with life and fiund, in the absence of law and weakness of authorities, an opportunity for looting and vandalism.

المقدمة

يتنامى الإحساس بالاستمتاع والنشوة مع سماع الشعر، وتسري في وجدان المتلقي لذة حسية ومعنوية تبعثها دوالُّ كلماته وموسيقاه، ثم لا يلبث أن يُنقد ويُقلب، فهذا محكم وذا مهترئٌ مترهلٌ، وكثيرًا ما نقف على (كيف قال؟) ونحجم عن (ماذا قال؟) لاسيما فيما يتعلق بالجانب الأخلاقي والديني منه، والحقيقة أن الاجتراء على هذا الجانب أولى بالعناية والبحث مما سواه؛ فالشاعر نسجه من نسيج مجتمعه، كما أن شعره أنسجة تألفت من شعوره وفكره وقيم مجتمعه الحضارية، وليس مجرد تعبيرات فلسفية أو خيالية أو منطقية ارتبطت مقدماتها بنتائجها؛ لذا لا نبالغ إن قلنا إن الشعر يتفوق على التاريخ بتصويره الفرد جده وهزله، انحرافه واستقامته، وكل أضداده، ثم هو المرآة التي نرى فيها المجتمع في كل زمان ومكان، حضارته وبداوته، مدنيته وغوغائيته، وهذا يخلص بنا إلى الانتقال بهدف الشعر المرتبط بوتد الإمتاع إلى فضاء المعرفة الرحب.

صور الشاعر العربي الجريمة في مجتمعه؛ بقصد خلق رؤية فكرية ونفسية واجتماعية لهذه الظاهرة، فكما صور الفكر الإنساني في أوج حضارته، صور السلوك الهمجي للمجرمين في المجتمع، فقدم نبعًا تنهل منه كتب التاريخ، وعلم الاجتماع والنفس وغيرها من الدراسات التي عنيت بتأصيل الظواهر ودراسة مسبباتها ومعالجتها.

وقد صبت الدراسات الأدبية التي تناولت صورة السلوك البشري في الشعر العربي اهتمامها على القيم الأخلاقية، نافرة من الرذيلة؛ تتناولها عجلى مكرورة، ولا نكاد نقف على دراسة واحدة في مفهوم الجريمة في الشعر العربي؛ فلا تزال عائمة في مصادر الأدب العربي بين الأغاني، والعقد الفريد، والمفضليات، وأيام العرب غيرها، على قلة قليلة من مفردات الكتب المختصة بهذا الجانب الخُلقي كأشعار اللصوص وأخبارهم للملوحي، وشعر الحرب في العصر الجاهلي لعلي الجندي، والهجاء لسراج الدين محمد، وخمر وشعر للكيالي، وبحوث متفرقة في الشعر السياسي في العصر الأموي والعباسي.

لذا جاءت هذه الدراسة تتغيَّا البحثَ في مفهوم الجريمة ودوافعها وألوانها في الشعر العربي، معتمدة على المنهج الاستقرائي الوصفي من خلال استقصاء صورة الجريمة في الشعر العربي خاصة في عصوره الأولى، واستقراء دوافعها وملامحها وأركانها، ثم استخلاص النتائج التي تتسق مع حدود البحث ومضامينه.

ورغم أن هذه الدراسة جاءت عجلى، إذ كانت تقتضي مادتها سبحًا طويلًا من البحث والدراسة، إلا أنها ستقف على الظاهر والمضمر منها، وبناء على ما تقتضيه مادتها، ستتألف من مدخل وأربعة مباحث وخاتمة، بيانها كالتالي:

المدخل: سيتطرق لمفهوم الجريمة ودوافعها وصنوفها بين منظور علم النفس الجنائي والشعر العربي.

المبحث الأول: الجريمة السياسية وسيتم التعريف بالجريمة السياسية، ودوافعها وأشكالها وعقوبتها عبر نماذج من الشعر العربي برزت فيها ألوان من الجريمة السياسية، وسيرصد تنوعها وتباينها حسب سلوك مجرميها.

المبحث الثاني: الجريمة العسكرية وسيرتكز على البحث عن مفهوم الجريمة العسكرية، ونظرة علم النفس الجنائي لها، واستقصاء ألوانها من منظور الشعر العربي.

المبحث الثالث: الجريمة الاقتصادية وسيتطرق للجريمة الاقتصادية وتصنيف علم النفس الجنائي للصوص والعيارين والحرافيش والصعاليك، وعرض ألوانها في نماذج من الشعر العربي، وسيحاول الوقوف عند دوافعها واتجاهاتها كسلوك إجرامي يعاقب عليه الدين والمجتمع.

الخاتمة: ستعرض فيها نتائج البحث وما استخلصته هذه الدراسة.

المدخل

تفترض طبيعةُ التكوين البيئي والاجتماعي أن الإنسان كائن أخلاقي بفطرته، يذعن للقواعد التي يرتضيها المجتمع، ويخضع لقانون الجماعة في عاداته وتقاليده، بيد أن النفس البشرية قد يعتريها بعض العوامل التي تجنح بها عن تلك الأعراف كالفروق الاجتماعية والثقافية والعجز المالي، والمرض النفسي وغيرها؛ مما يضطرها إلى مخالفة السلوك الجمعي الذي تعيش فيه بالانحراف والشذوذ عن المألوف المرتضى إلى ارتكاب جرائم تشفي غلتها وترضي سخطها، ويطلق المجتمع على هذه الانحرافات لفظة "جريمة" كما يسمى مرتكبها "مجرم" وقد رسخ في الوعي الجمعي أن "الجرائم محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحدٍّ أو تعزير، ولها عند ثبوتها حال الاستيفاء ما توجبه الأحكام الشرعية" (الماوردي، 1985، ص285) وأنها: كل "سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية التي وضعت لها الجماعة جزاءات سلبية تحمل صفة رسمية (ربيع، ويوسف، وعبدالله، ص39) " وعليه فالجريمة كل قبيح مستهجن من السلوك العضلي أو الفسيولوجي أو الرمزي اللفظي أو الإشاري، استوجب العقاب من الحاكم واللوم من المجتمع، كارتكاب المخالفات التي نهى عنها الشرع، وحرمتها الدولة؛ لما يترتب عليها من ضرر على المجتمع وإضرار بالمصلحة العامة؛ نتيجة مخالفة المعايير الأخلاقية التي ارتضاها المجتمع.

وعليه فالمجرم هو ذاك "الفرد الذي ينتهك القوانين والقواعد الجنائية في مجتمع ما مع سبق الإصرار، أو هو الشخص الذي يرتكب فعلًا غير اجتماعي سواء كان بقصد ارتكاب جريمة أم لا. ويشمل هذا المعنى كل من ينتهك الأعراف أو يتصرف على نحو يخالف المعايير الاجتماعية".

(ربيع وآخرون، ص39). فالمجرم شخص منحرف منبوذ، مستحق للعقاب نكالًا من الله والمجتمع.

إذا أُتفق على نبذ المجتمع لكل فعل يخرق قانونه ويخرج على أعرافه، فإننا لا نستطيع إطلاق مصطلح جريمة على هذه الأفعال جملة واحدة؛ إذ لا يكون الفعل جريمة إلا إذا تحققت فيه أركان ثلاثة: شرعي، ومادي، وأدبي؛ إذ لا بد له من نصّ شرعي أو قانوني يجرمه ويعاقب عليه، وأن يقع الفعل وينفذ؛ فلا يعدُّ التفكير أو التحضير له جريمة إلا إذا بلغ مرحلة الشروع والتنفيذ، كما لا يعدُّ الفعل جريمة إلا إذا كان الجاني مكلفًا أهلًا له.

وتختلف الجريمة حسب جسامتها والمجرمون حسب

سلوكهم الإجرامي، إذ ثمة فارق بين المخالفة والجريمة والجنحة، كما أن هناك فرق بين الجرائم نفسها؛ فهناك جرائم سياسية، وعسكرية، واقتصادية وغيرها.

وقد وجدت الجريمة منذ القدم، واختلفت باختلاف السلوك والدوافع، فلا يمكن ربط جميع الجرائم إلى سبب واحد؛ فالدوافع مختلفة؛ منها العضوي والنفسي والثقافي والاجتماعي، وقد تتضافر العوامل الفسيولوجية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية في حدوث الجريمة.

"وتقودنا تلك الدوافع إلى الوقوف على النزعة الإجرامية؛ فقد تكون سلوكًا تعويضيًّا، أو ردَّ فعل للإحباط والشعور بالفشل، أو حالة مرضية، أو إشباع لحاجات المجرم بأساليب منحرفة وغير قانونية" .(العيسوي، 2005، ص24)

إذًا نستطيع القول بأنه "لا يمكن وضع تفسير واحد لكافة أنماط السلوك الإجرامي؛ ففكرة العامل الواحد أو السبب الواحد مرفوضة في علم النفس الجنائي" (ربيع وآخرون، ص133) فالفرد لا يعيش وحده، وإنما في محيط اجتماعي يؤثر فيه ويتأثر به، وكما أن لهذا التأثير إيجابيات، فإن له سلبيات، أبرزها الانحراف الشخصي الذي هو "محصلة فشل الفرد في التوافق مع القيم والمعايير ومختلف أشكال السلوك المقبول في المجتمع" (ربيع وآخرون، ص134)، أو الصراع القيمي الناتج عن "الصراع بين القيم الموروثة والمكتسبة في المجتمع؛ فحين ينظر بعض الأفراد إلى سلوك ما نظرة استهجان، يراه البعض الآخر سلوكًا سويًّا بعيدًا عن دائرة الانحراف، كالبغاء والإدمان والقمار، وربما فقدَ الفردُ مصداقيةَ بعض المعايير التي تلقاها، كالصدق والأمانة والوفاء، وهذا مردُّه إلى النشأة الاجتماعية في البيت والمدرسة والأقران؛ إذ تؤدى إلى اكتساب الفرد معتقدات انحرافية أو تفقده الثقة في بعض القيم الإيجابية، الأمر الذي يفتح ويمهد له طريق الانحراف باعتباره الوسيلة المناسبة للتعامل مع الواقع" (ربيع وآخرون، ص135).

ومن منظور آخر، فإن للتفكك على المستوى الاجتماعي عامة والأسري خاصة دورًا مباشرًا في نشأة الجريمة؛ فالمجتمع المستقر تقلُّ فيه معدلات الجريمة؛ نتيجة التمسك بالقيم والأعراف الاجتماعية، في حين تكون المجتمعات المتفككة مناسبة للجريمة من حيث نموها وانتشارها.

وأخيرًا، فإن للعامل البيولوجي دوره في وجود الجريمة؛ كالخصائص النوعية مثلًا؛ فإذا كانت الجريمة سلوكًا منحرفًا، فالرجال والنساء عُرضة للوقوع فيه، بيد أن أكثر المجرمين رجالًا.

كذلك الخصائص الوراثية كالذكاء والغباء مثلًا، والانفعالية كالاندفاع والحلم، والجسمية كاللون والحجم، كل هذه وغيرها مؤثرات لها دورها في بواعث الجريمة وربما في تحديد نوعيتها ودرجتها الإجرامية.

وقد حفل الأدب العربي بألوان وصور من الجرائم والعقوبات، لاسيما الشعر الذي كان ولا زال سجل أيام العرب والشاهد على أيامهم و ضروب معاشهم وحركاتهم وسكناتهم؛ فالقارئ للشعر العربي يلحظ أنماطًا من الجرائم السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والعامة بمختلف أشكالها وفنونها، سواء كانت جريمة فردية يقوم بها أحد أفراد المجتمع، أو جريمة منظمة يقوم بها أعضاء تنظيم إجرامي يمارس أنشطة خارجة عن القانون وطقوسه التنظيمية.

كما نلمس في صوره ومضامينه فروقًا بين أنواع المجرمين؛ فنجد صورة المجرم القاتل عن عمد قد خلت عواطفه من الرحمة والعطف، لا يكترث بجريمة القتل ولا يأبه للردع والعقوبة في سبيل التخلص من كل ما يعوقه عن سرقته أو قطعه الطريق وتعطيل الحياة العامة، وهناك المجرم العنيف بنوعيه الانفعالي والمتواطئ، فالأول تثيره الخمور و الظروف الانفعالية، والثاني يرتكب الجرائم الجماعية كالأخذ بالثأر والثورة على النظام الحاكم والنهب والسلب.

وكذلك نجد صورة المجرم الخائن، المفتقر للنزاهة والأمانة، المتواطئ مع أعداء الوطن.

وأخيرًا صورة المجرم الفاسد جنسيًّا الذي يتجه سلوكه الإجرامي ضد العفة والطهارة الجنسية، فيمارس الشذوذ ويجاهر به.

ومن خلال دراسة تأصيلية لبواعث الجريمة في الشعر العربي، يمكن تلمُّس العديد من الجرائم التي سيتم تتبع دوافعها وأحداثها ونتائجها في المباحث التالية:

الجريمة السياسية:

يصنف "المجرم السياسي على أنه مجرم مهني ينحصر إجرامه في خرق القوانين التي تحددها الدول لتنظيم أنشطتها وسياستها وأمنها، كما يصنف من فئة المجرمين المحترفين الذين يعملون وفق تخطيط ونظام جماعي، ومشكلة هؤلاء المجرمين لا تتعلق بسلوكهم الإجرامي بقدر ما تتعلق بالتنظيم الاجتماعي السائد في المجتمع، وما يحكمه من قوانين تضبط الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الأفراد بعضهم البعض أو بينهم وبين المؤسسات والسلطة الحاكمة" (ربيع وآخرون، ص164).

وعليه فالجريمة السياسية هي التي يتم ارتكابها لأسباب سياسية، كالاعتداء على النظام السياسي، أو جرائم التحريض والمظاهرات ضد الدولة، وتستوجب هذه الجريمة العقاب الرادع؛ باعتبارها سلوكا انحرافيًّا خارقًا لقانون الجماعة يؤدي إلى خلخلة النظام وإشاعة الفوضى، وحتى يكونوا عبرة لغيرهم.

وقد ظهرت الجريمة السياسية كظاهرة انحرافية في الشعر العربي منذ عصوره الأولى، متمثلة في التمرد على السلطة الحاكمة أو القانون الحاكم في القبيلة، أو في عصوره التالية كثورات الأحزاب والفرق السياسية، ويمكن تفسيرها كسلوك انفعالي ناجم عن دوافع نفسية واجتماعية انعكست لإظهار اعتراضها ورفضها لسياسة النظام بطريقتين، إما بالتميز وأخذ فرص الاستحقاق بالقوة، كما هو الحال في ثورات العلويين والزبيريين ضد الدولتين الأموية والعباسية، وإما بالتمرد والسلوك العدواني كالصعاليك، و"هذه الظاهرة وإن بدت ناشزة مرفوضة إلا إنها طبيعية في التكوين الطبقي للمجتمع؛ ففي كل مجتمع

يوجد أفراد يشعرون بتفردهم وتميز شخصيتهم، وبالعجز عن التجاوب مع الأوضاع والتنظيمات في مجتمعهم، والسمات السلوكية التي يُفترض أنهم ينتمون إليها، ويرفضون القيم العامة السائدة في المجتمع الذي يعيشون فيه، والثقافة التي يتقبلها بقية أفراد المجتمع، وهذا الرفض يؤدي إلى التمرد السياسي أو الاجتماعي أو الديني".(ربيع وآخرون، ص39).

وقد يتبادر إلى الذهن أن الدافع لهذا التمرد هو الصراع على السلطة، والحقيقة أن جل الشعراء الذين أدلوا بدلوهم في هذا المجال كانوا ناقمين أو راغبين في الانتقام من الدولة ورموزها، كما أن البعض منهم أقحم نفسه في الصراع الفكري المتبادل بين المعارضة والسلطة الحاكمة، بل إنهم اتخذوا هذا المضمار منبرًا للظهور والإعلام، والنتيجة: الانسلاخ من جلد القبيلة والدولة، والتمرد والخروج على الحاكم، الأمر الذي أفضى إلى عقوبة التغريب والنفي أو الإعدام.

وسنعرج بداية على الشعر الجاهلي باعتباره أداة تعبير عن وجوه الحياة في هذه الفترة التي شاع عنها أنها بدائية للدرجة التي يشوبها القصور في فهم معنى السياسة أو مجرد العمل بمفهومها؛ بزعم أنها "لم تبلغ درجة من النضج والاكتمال بحيث يسوغ لنا أن نسميها علاقات سياسية؛ فالعربي في ذلك الوقت ـ لم تكن قد اكتملت لديه مقومات الدولة أو الشعب الذي يرتبط بالسياسة الناضجة، وإنما ظل مرتبطًا بكيانه القبلي المستقل" (غراب، 2014، ص331). وهذا رأي يمكن تفنيده؛ فقد عَرف الجاهليُّ عُرف الدولة بعد احتكاكه بالفرس والروم وأتباعهم من المناذرة والغساسنة، ومال الشاعر الجاهلي باعتباره فردًا من هذه البيئة البدائية كما مال أفرادها إلى الغساسنة، في حين مال آخرون إلى المناذرة كالنابغة والأعشى وطرفة وعمرو بن كلثوم التغلبي، ونتوقف عند الأخير؛ حيث تبينت معالم أول جريمة سياسية، لقد تمرد الشاعر "عمرو بن هند" على ملك الحيرة، حين استشعر امتهانًا لكرامته، وانتقاصًا من شرف قبيلته ومكانتها، فأعلن رفضه وتمرده، وهاجت عاطفته مهددًا متوعدًا، قال في معلقته المشهورة:

أبا هِندٍ فَلا تَعَجَل عَلَينا   وَأنظِرنا نُخَبِّركَ اليَقينا
بِأنّا نورِدُ الراياتِ بيضاً   وَنُصدِرُهُنَّ حُمراً قَد
وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ   رَوينا
وَسَيِّدِ مَعشَرٍ قَد تَوَّجوهُ   عَصَينا المَلكَ فيها أَن
تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ   نَدينا
وَأَنزَلنا البُيوتَ بِذي طُلوحٍ   بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا
أَلا لا يَعلَمُ الأَقوامُ أَنّا   مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا
أَلا لا يَجهَلَن أَحَدٌ عَلَينا   إِلى الشاماتِ تَنفي الموعِدينا
تَضَعضَعنا وَأَنّا قَد وَنينا
فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلينا

(الزوزني، 2002، ص165).كانت علاقة الجاهلي بالدولة علاقة معقدة كنظام الدولة المعقد وقتها؛ فإذا "كان الجاهلي قد استطاع التعرض للقبيلة وعصيانها، ومن ثم الخروج عليها، وذلك بحكم تعجرفه وكرهه للنظام، وغلظته، فكيف به ونظام الدولة أكثر تعقيدًا وهيبة من نظام القبيلة، وعلى هذا النحو ظلّ الجاهلي ينظر للدولة كما ينظر للقبيلة، فراح يهجو ويعبر عن رفضه؛ لتعسف الدولة وملكها وتحقيرها لقبيلته" (ملحس، 1996م، ص164)، أو "أنفة منه تجاه الدولة بسبب رفضه وعدم استساغته كبرياء الملوك وعنجهيتهم، أو رفضه لنظام معين" (حسين، 1976، ص194)، وموقف عمرو بن كلثوم ليس حالة فردية؛ فقد نقل الشعر الجاهلي العديد من هذه المشاهد، كالتي يرويها "الضبي" في مفضلياته من تمرد يزيد بن الخذاق الشّنّيّ على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، يقول مهددًا متوعدًا:

نُعْمان إنَّكَ خائنٌ خَدِعٌ   يُخفِي ضَميرُكَ غيرَ ما تُبْدِي
فَإذَا بَدَا لَكَ نَحْتُ أَثْلَتِنَا   فَعَلَيْكَها إنْ كُنتَ ذَا حَرَدٍ
يَأْبى لَنَا أَنَّا ذَوُو أَنَفٍ   وأُصُولُنا من مَحْتِدِ المَجْدِ
إنْ تَغْزُ بالخَرْقاءِ أُسْرَتَنَا   تَلْقَ الكَتائِبَ دُونَنا تَرْدِي
أَحَسِبْتَنَا لحماً عَلَى وَضَمٍ   أَمْ خِلْتَنَا في البأْسِ لا نُجْدِي
وهَزَزْتَ سَيْفَكَ كيْ تُحارِبَنَا   فانْظُرْ بِسَيْفِكَ مَن بِهِ تُرْدِي

(الضبي، 1964، ص296).وينقل صاحب المفضليات، قصيدة الحارث بن ظالم يعلن تمرده الصريح على النعمان بن المنذر، مهددًا إياه بالويل والقتل؛ لأنه ظالم له جائر على قبيلته، قال:

قِفا فاسْمَعا أَخْبِرْكُما إذ سَألْتُما   مُحارِبُ مَوْلاهُ وَثَكْلانُ نادِمُ
فَأُقْسِمُ لولا مَنْ تَعَرَّضَ دونَهُ   لَخَالَطَهُ صافي الحَديدةِ صارِمُ
حَسِبْتَ أبا قابوسَ أنّكَ سالِمٌ   وَلَمّا تُصِبْ ذُلّاً، وأنْفُكَ راغِمُ

(الضبي، 1964، ص312).استهل الحارث أبياته بمخاطبة الصاحب، وقد سألاه عن حاله، ليخبرهما أنه محارب مولاه الملك، معلن عصيانه وتمرده عليه، مفتخرًا أنه قتل الأمير ابن الملك النعمان، وكان قد أودعه الملك عند أخت الشاعر سلمى بنت ظالم، فالنعمان بعد فقد ابنه ثكل نادم، ولا يكتفي الحارث بذلك، بل يهدد ويتوعد النعمان نفسه الذي تمنعه خيله ورجله دون ذلك، قال:

فَتكتُ به كما فَتكتُ بخالدٍ   كأن سلاحي تحتويه
أخُصْيَيْ حِمارٍ بات يكدِمُ   الجماجمُ
نجمةٌ   أتأكل جيراني وجارُكَ
بدأتُ بِهذِي ثم أثْني بهذِهِ   سالمُ
وثالِثةٌ تَبيضُّ منها المقادِمُ

(الضبي، 1964، ص312). يفخر الشاعر بما أصاب به ملكه من ثكل، ويحذره إن عاود الانتقاص منه أو النيل من قبيلته أن يكرر ذلك، مفتخرًا أنه استطاع إذلاله في قتل ابنه كما فعلها من قبل في أحد فرسانه، فلن تقف أمامه منعة الحرس في قتل النعمان نفسه.

إن مثل هذه الوقائع تعدُّ إرهاصاتٍ أولية للجريمة السياسة، التي اكتملت عناصرها وأركانها، فالمجرم السياسي محترف، يعمل وفق تخطيط وتنظيم محكم، وهذه النماذج لعمرو بن كلثوم أو يزيد بن الحذاق أو الحارث بن ظالم وغيرهم تشكل جريمة سياسية فردية عكست صورة المواطن الثائر على سياسة الدولة والتمرد على الحاكم

الظالم المستبد، بيد أن هذا اللون أخذ يستكمل مقوماته وتنظيمه الجرائمي داخل القبيلة، ليظهر كتمرد جماعي منظم محترف.

لا يمنع وجود قانون أو دستور ينظم الحياة داخل المجتمع عامة والقبيلة خاصة؛ فللقبيلة عرفها ومنهاج حياتها الذي يلتزمه أفرادها وينقادون له، وأيُّ تعدٍّ أو خرق لهذه الأعراف يعدُّ فسوقًا عنها يستوجب الاستهجان وجريمة توجب العقاب، وقد سجل الشاعر الجاهلي مشاهد وأحداث من هذا القبيل، لعل أبرزها يتجسد في قضية الصعلكة التي تعدُّ واحدة من أبرز الجرائم السياسية القبلية في الشعر العربي؛ فقد توافرت لها دوافع التمرد السياسي من حيث رفض سياسة القبيلة، والخروج على قوانينها وأعرافها، فنبذتها واستوجبت عقابها، نلمس بعض الملامح لهذه الجريمة السياسية في قصة تصعلك عروة بن الورد، حيث الصراع الأيديولوجي بين الفرد الصعلوك وأنساق القبيلة السياسية، فنراه يرفض الانصياع لسياستها مختلقًا تداعيات ومبررات تجوِّز له ذلك، فيعوّل على تنمرهم على نسبه لأمه تارة، وعلى مؤازرته للفقراء ودفاعه عنهم تارة أخرى، قال:

هُم عيَّروني أن أمّي غَريبةٌ ... وهل في كريمٍ ماجدٍ ما يعيرُ؟
وقد عيَّروني المالَ حينَ جَمعتُهُ ... وقد عيروني الفقرَ إذ أنا مُقتِرُ
وعَيرني قومي شبابي ولِمَّتي ... متى ما يشا رَهطُ امرئٍ يتعيرُ
حوى حيُّ أَحياءٍ شتيرَ ابنِ خالدٍ ... وقد طعمت في غنم آخر جعفر
ولا أنتمي إلا لِجارٍ مُجاورٍ ... فما آخِرُ العيشِ الذي أنتظرُ!

ابن الورد، 1992، ص71-72). فكان تمرده على القبيلة راجعًا لجفائها وازدرائها ورفضها له حين عيروه بأمه الغريبة كما عيروه أنه جاء نهبًا وسلبًا، فصرمته القبيلة قبل صرمه لها، وقطعت أواصره؛ فقطع أواصرها، فلا سبيل أمامه سوى الإذعان لمبدأ التصلعك، فراح يثور على قيم القبيلة وسياستها، قال:

دعيني للغِنى أسعى فإني ... رأيتُ الناس شرُّهمُ الفقيرُ
وأبعدُهُم وأهونُهُم عليهم ... وإن أمسى لهُ حَسبٌ وخَيرُ
ويُقصيهِ النديُّ وتَزدريهِ ... حليلَتُهُ وينهرُهُ الصَغيرُ
وَيُلفي ذو الغِنى وَلَهُ جَلالٌ ... يَكادُ فُؤادُ صاحِبُهُ يَطيرُ
قليلٌ ذَنبُهُ والذَّنبُ جمٌّ ... ولكن لِلغنى ربٌّ غفورُ

(ابن الورد، 1992، ص58). رفض عروة الواقع؛ مبررًا فساد تلك القسمة المجحفة، وقدم فلسفته التي يرتضيها، قال:

إذا المِرءُ لم يبعث سواماً ولم يُرَح ... عليه ولم يعطِف عليه أقاربُه
فَلَلمَوتُ خيرٌ للفَتى من حياتِهِ ... فقيرًا ومن مولىً تدِبُّ عقارِبُه

(ابن الورد،1992، ص59). فإحساسه بأن القبيلة تخلت عنه وبخلت بخيرها عن ضعفائها كان دافعًا لرفضها والتمرد عليها، وهذه النزعة الإجرامية هي نفسها المحرك للجريمة في مفهومها العام؛ "فالجنوح والنزعة الإجرامية تمثل حربًا ضد الإحباط، بمعنى أن الإجرام يتولد عن الشعور بالفشل، إنها أشكالٌ من السلوك العدواني تجاه المجتمع كردِّ فعل عن وجود نقص داخل الفرد أو في نفسه أو في بيئته المباشرة" (العيسوي، ص67) ولعل هذا هو الدافع وراء جنوح الصعلوك عن سرب القبيلة، وتمرده وخروجه عليها.

تستوفي الجريمة السياسية أركانها في عصر صدر الإسلام، لا سيما جريمة قتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على يد مولى المغيرة بن شعبة "أبو لؤلؤة المجوسي" وكان قد "شكا إلى أمير المؤمنين عمر ارتفاعَ الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة، ورجاه في تخفيفه، فلم يجبه إلى ما طلب، فأسرّها في نفسه، وتحيّن الفرصة حتى طعنه بخنجره وهو قائم يصلي، يروي الطبري في تاريخه أن عمر بن الخطاب خرج يومًا يطوف في السوق، فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، وكان نصرانيًّا، فقال: يا أمير المؤمنين، أعني على المغيرة بن شعبة، فإن عليّ خراجًا كثيرًا، قال: وكم خراجُك؟ قال: درهمان في كل يوم، قال: وما هي صنعتك؟ قال: نجار، نقاش، حداد، قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال، فقد بلغني أنك تقول: لو أردتُ أن أعمل رحىً تطحن بالريح فعلتُ، قال: نعم، قال: فاعمل لي رحىً، قال: لئن سلمت لأعملن لك رحىً يتحدّث بها مَنْ بالمشرق والمغرب، ثم انصرف عنه، فقال عمر لقد توعدني العبد آنفًا... قال: ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجرٌ له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمرَ ست ضربات، إحداهن تحت سرته، وهي التي قتلته وقتل معه كليب بن أبي البكر الليثي وكان خلفه".

(الطبري، 1967، ص702- 703). قال حافظ إبراهيم مصورًا هذه الجريمة:

مولى المغيرَةِ لا جادتكَ غادِيَةٌ ... من رحمة اللهِ ما جادَت غَواديها
مزَّقتَ منهُ أيماً حشوُهُ هِمَمٌ ... في ذمَّةِ اللهِ عاليها وماضيها
طَعنتَ خاصرةَ الفاروقِ مُنتقمًا ... من الحنيفةِ في أعلى مجاليها
فَأصبحَت دولةُ الإسلامِ حائرة ... تشكو الوجيعةَ لما ماتَ آسيها

إلى أن قال:

يا ليتهُم سمعوا ما قالهُ عُمرٌ ... والروحُ قد بلغت منهُ تراقيها
لا تُكثروا من مواليكُم فإن لهم ... مطامعًا بسماتُ الضعفِ تُخفيها

(إبراهيم، 1987، ص78-79).كان مقتل الفاروق بداية للجريمة السياسية بمفهومها المتكامل، لتبدأ رحلة هذا اللون من الجرائم في المجتمع العربي، فعلى إثرها كانت جريمة مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والتي جرَّت سلسلةً من الجرائم السياسية بلغت حدَّ الفتن الكبرى، والثورات

السياسية والخروج على الحاكم وغيرها.

وعندما نلقي الضوء على جريمة مقتل عثمان بن عفان نجدها جريمة منظمة محكمة، قد خُطط لها مسبقًا؛ أعد لها العدة، وأعان عليها تشكيلٌ محترفٌ منظمٌ، وقد وقف الشعر العربي عند هذه الجريمة التي يصوّرها حسان بن ثابت في قوله:

ما نقمتم من ثياب خلفةٍ ... وعبيد وإماء وذهب
قُلتم بدّل فقدْ بدّلكم ... سنةً حرّى وحرباً كاللهب
ففريقٌ هالك من عجفٍ ... وفريقٌ كان أودى فذهبْ
إذ قتلتم ماجدا ذا مرّةٍ ... واضح السنة معروف النّسب

(الأنصاري، 1994م، ص28). يروي الطبري "أن أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيء جبلة بن عمرو الساعدي، مرَّ به عثمان وهو جالس في ندى قومه، وفي يد جبلة بن عمرو، فلما مرَّ عثمان سلّم، فردَّ القوم، فقال جبلة: لمَ تردون على رجل فعل كذا وكذا! قال: ثم أقبل على عثمان، فقال: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه. قال عثمان: أي بطانة! فوالله إني لأتخير الناس، فقال: مروان تخيرته! ومعاوية تخيرته! وعبدالله بن عامر بن كريز تخيرته! منهم من نزل القرآن بدمه، وأباح الرسول دمه. قال: فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه" (الطبري، د.ت، ص768).

ثم اشتعلت نار الفتنة مخلفة أكبر جريمة سياسية وقتها مقتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان، يستكمل الطبري روايته، فيقول:" أن محمدًا بن أبي بكر دخل عليه فأخذ بلحيته، فقال له: قد أخذت منّا مأخذًا، وقعدت مني مقعدًا ما كان أبو بكر ليقعده أو ليأخذه. قال: فخرج وتركه. قال: ودخل عليه رجل يقال له الموت الأسود. قال: فخنقه ثم خفقه، ودخلوا عليه، فمنهم من يجؤه في ترقوته، فسال الدم على المصحف وهم في ذلك يهابون في قتله، وكان كبيرًا وغشي عليه. ودخل آخرون فلما رأوه مغشيًّا عليه جروا برجله، فصاحت نائلة وبناته، وجاء التجيبي مخترطًا سيفه ليضعه في بطنه، فوقته نائلة، فقطع يدها، واتّكأ بالسيف عليه في صدره، وقتل عثمان قبل غروب الشمس، ونادى مناد: ما يحل دمه ويخرج ماله، فانتهبوا كل شيء، ثم تبادروا بيت المال، فألقى الرجلان المفاتيح ونجوا، وقالوا: الهربَ الهربَ! هذا ما طلب القوم"(الطبري، د.ت، ص778).

وفي الجملة الأخيرة دليل على أن الجريمة كانت مدبرة قد خطط لها مسبقًا، قال ابن إسحاق: قال عبدالرحمن بن عديس البلوى حين سار إلى المدينة من مصر.

أقبلن من بلبيس والصعيد ... مستحقبات حلق الحديد
يطلبن حق الله في سعيد ... حتى رجعن بالذي نُريد

(الطبري، د.ت، ص774). وفيها أيضًا الشرارة التي أشعلت النار في سياسة الدولة الإسلامية فيما بعد؛ فالبعض متمرد قد شق عصا الطاعة، كمعاوية بن أبى سفيان الذي رفض البيعة لعلي؛ مطالبًا بالثأر لعثمان، يحرّضه أتباعه ومواليه، كالوليد بن عقبة في قوله:

ألا أبلغ مُعاوية بن حربٍ ... فإنك من أخي ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدِمِ المُعنّى ... تُهَدِّرُ في دمشق فما تريمُ
وإنك والكتاب إلى عليّ ... كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الأدِيمُ
يمينك الإمارة كل ركب ... لأنقاض العراق بها رسيم
وليس أخو الترات بمن توانى ... ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيّاً ... لجرّد، لا ألفّ، ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى ... يبيء بها، ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة، قد أبيروا ... فهم صرعى كأنهم الهشيم

(ابن الأثير، 1966، ج2، ص245). والمعنى يدل على المحبوس في العنة، وكَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الأدِيمُ: يضرب للأمر الذي قد انتهى فساده. وذلك أن الجلد إذا حَلِمَ فليس بعده إصلاح.

وآخرون يلحقون ببني هاشم العار في قتله وسرقة بيته، وتستمر أحداث الشغب والثورة إلى أن تُسفر عن حرب صفين، مخلّفة جرائم تترى كان فتيلها ما خلفته من أحزاب الأمويين والشيعة والخوارج، بجانب قوى سياسية أخرى كانت تزاحم الساحة السياسية كالزبيريين.

ثم استساغ الناس طعم هذا اللون من الجريمة فكأنهم رضوا بما آلت إليه من فوضى سياسية، فالخوارج خارجة على عليّ ومن بعده معاوية؛ متمردون على سياستهما، يكفرون معاوية وأتباعه، يقول قطريّ بن الفجاءة يوم معركة "دولاب" التي كانت بين نافع بن الأزرق زعيم الخوارج من ناحية، وأتباع الأمويين في البصرة من ناحية أخرى:

وضاربةٍ خدًا كريماً على فتىً ... أغَرَّ نَجيبُ الأمهاتِ كريمِ
أُصيبَ بدولابٍ ولم تكُ موطناً ... له أرض دولابٍ ودير حَميمِ
فلو شَهِدَتنا يوم ذاكَ وخيلُنا ... تُبيحُ من الكفار كل حَريمِ
رأيت فتيةً باعوا الإلهَ نُفوسهُم ... بجنّاتِ عدنٍ عِندهُ ونعيمِ

(ابن الأثير، 1966، ج 2، ص182). ننتقل إلى لون آخر من ألوان الجريمة السياسية في الشعر العربي؛ إذ يعدُّ التطاول على الحاكم جريمة سياسية، يعاقب عليها القانون؛ من هذا اللون قول دعبل في الرشيد:

وليس حيٌّ من الأحياء نعلمَه ... من ذي يمانٍ ومن بَكرٍ ومن مُضرِ
إلاّ وهم شركاءٌ في دمائهم ... كما تشارَك أيسار على جُزرِ
قتلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ ... فِعْلَ الغُزاةِ بأرضِ الرُّومِ والخَزرِ
أرى أُميَّةَ معذورين إن قُتلوا ... ولا أرى لبني العباسِ من عُذرِ
أربع بطُوس على القبر الزكيّ إذا ... ما كنت تربع من دين على وطرِ
قبران في طُوسَ خيرُ النّاس ... وقبرُ شرّهم هذا من

كلّهمُ   العِبَرِ
ما ينفع الرَّجسَ من قُربِ الزكيّ ولا   على الزكيّ يقُرب الرجسِ من ضررِ
هيهاتَ كلَّ امرئ رهنٌ بما كسبتْ   له يداه فَخُذْ ما شئت أو فذَرِ

(الأصفهاني، 1962، ج 3، ص44). ألصق دعبل بالرشيد تهمًا عدة من سفك للدماء وأسرٍ وتحريق وإرهاب، فأنزله منزلة الغزاة من الروم في أرض العرب؛ إذ لم يراعوا حرمة الأموال والدماء، ملتمسًا العذر لبني أمية في قتلهم دون عذر، ثم راح يرثي بنى أمية ويبكي قبورهم في طوس، معلِّقًا دماءهم في رقبة الرشيد؛ إذ كل امرئ بما كسب رهين.

وإذا كان دعبل أفلت من بطش الرشيد فإنه لم يفلت من بطش المعتصم، إذ راح يصبُّ عليه شواظًا من أهاجيه يقول:

بكى لِشتات الدِّين مكتئب صبّ   وفاض بفرطِ الدمعِ من عينه غربُ
وقال إمامٌ لم يكن ذا هديةٍ   فليس له دينٌ وليس له لبُّ
وما كانت الآباء تأتى بمثلِه   يُملّكُ يوماً أو تَدينُ له العُربُ
ولكن كما قال الذين تتابعوا   من السلف الماضين إذ عُظم الخطبُ
ملوك بنى العباس في الكُتبِ سبعةٌ   ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ كُتْبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعةٌ   خيارٌ إذا عُدواً وثامنهم كلب
وإنيِ لأُعلي كلبهم عنكَ رفعةً   لأنّكَ ذو ذنب وليس له ذنبُ
لقد ضاع ملكُ الناسِ إذ ساس ملكَهم   صيف وأشناسٌ وقد عظُمَ الكَربُ
وفضل بن مروانٍ يثلِّم ثلمةً   يظلُّ لها الإسلامُ ليس له شعبُ

(الخزاعي، 1983،ص48-49). جرده من الدين كما سلبه الحكمة والحنكة السياسية، وسعَّر هذا الهجاء حين حرمه شرف الانتساب إلى الحكام العظام من بني عباس؛ فقصرهم على سبعة كان المعتصم ثامنهم فأنزله منزلة كلب أصحاب الكهف، إذ كانوا سبعة ثامنهم كلبهم، بل أعلى منزلة الكلب؛ إذ كان حافظًا لأصحابه حين ضيع المعتصم ملك الناس بسياسته الفاسدة، وختم أبياته بأفحش من ذلك؛ "حين جعل حكم المعتصم وصمة عار في جبين الخلافة، ولقد كانت هذه الجريمة كافية لقتله؛ إذ سمع بها المعتصم فتوعده، ففرّ إلى خرسان، وإن كان هذا الفرار لم يسلمه من القتل؛ فتتبعه وزير المعتصم مالك بن طوق فأرسل له من اغتاله".(الأصفهاني، 1962، ج20، ص 110).

يضاف إلى هذا اللون من الجرائم قول أعشى همدان، يحرض الناس على الحجاج بن يوسف الثقفي، وذلك في أثناء مشاركته في ثورة ابن الأشعث ضده:

يأبى الإلهُ وعزةُ ابن محمدٍ   وجُدود ملكٍ قبل آل ثمودِ
أن تأنسوا بمُذمّمين عُروقُهم   في الناس إن نسبوا عروقُ عبيدِ
كم من أبٍ لك كان يعقدُ تاجهُ   بجبين أبلجَ مقولٍ صنديد
وإذا سألت: المجدُ أين محلهُ   فالمجد بين محمدٍ وسعيد
بين الأشجّ وبين قيس باذخٌ   بخْ بخْ لوالده وللمولود
ما قصرت بك أن تنالَ مدى العُلا   أخلاق مكرمةٍ وإرث جدودِ
قرمٌ إذا سامى القُروم ترى لهُ   أعراق مجد طارفٍ وتليدِ
وإذا دعا لعظيمةٍ حُشدت لهُ   همدانُ تحت لوائهِ المعقودِ

(أعشى همدان، 1983، ص112-113). إبل مخبخبة عظيمة الأجواف، وهي المبخبخة مقلوب مأخوذ من بخ بخ. والعرب تقول للشئ تمدحه: بخ بخ، فكأنها من عظمها إذا رآها الناسُ قالوا: ما أحسنها، و"عرَّض الهمداني بالحجاج في قوله (آل ثمود)، وكان الحجاج يكره تلك المقولة، وينفيها في خطبه، ويقول: يقولون أنا من بقايا ثمود، والله يقول: (وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَ)[النجم].

ويستمر الهمداني في تطاوله على الحجاج، فيذم عرقه وينقص من قدره، ويؤلّب عليه، ويرفع من شأن ابن الأشعث؛ موقدًا فتيل ثورته، وهي جريمة سلكت بمقترفها مسلك الشؤم؛ إذ لما وقع الأعشى في أسر الحجاج، وأتي به إلى مجلسه وفيه وجوه أهل الشام وقادة الجند وأمراء البلاد، قال له الحجاج: إيه يا عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك، ألست القائل:

إِنّا سَمَونا لِلكَفورِ الفَتّان   بِالسَيِّدِ الغِطريفِ عَبدِ الرَحمَن

ولم يزل ينشده حتى أتى على قوله كله، ولم يجبه الأعشى بشيء، فعاد الحجاج يسأله مرة أخرى، وقال له: ثم أخبرني عن قولك:

يـا اِبـنَ الأَشَجِّ قَريعِ كِندَةَ   لا أبالى فيكَ عَتبا

ولم يزل ينشده من هذه القصيدة حتى انتهى إلى قوله:

نُبِّئتُ حَجّاجَ بن يو   سف خرّ من زلقٍ فتبّا

ثم صاح: كلا يا عدو الله، بل ابن الأشعث الذي خرّ من زلق فتب، وحار وانكب، وما لقي ما أحب.. ورفع بهذا الصياح عقيرته حتى أربد وجهه، واهتز منكباه، فلم يبق أحد في المجلس إلا همته نفسه وارتعدت فرائصه، ثم نادى الحجاج: يا حرسيُّ، اضرب عنقه فقدم الأعشى فضربت عنقه"

(الأصفهاني،1962، ج 6، ص60).

الجريمة العسكرية:

تقتضي طبيعة الحياة في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية وجودَ قوانين وسننٍ تضمن للحياة سيرورتها وصلاح معيشتها، مما استلزم وجود جماعة تقوم على حماية هذه القوانين والأخذ على يد كل من تسوّل له نفسه خرق حدودها، وفى الوقت نفسه تلتزم بضمان سلامة هذا المجتمع خارجيًّا ضد كل ما يهدد استقراره ويزعزع أمنه، من أجل ذلك كانت القوة العسكرية، فعلى أفراد المجتمع التكاتف معًا ضد أي خطر خارجي كان أو داخلي؛ فالجميع

في سفينة واحدة، بيد أن التركيب الثقافي والأيديولوجي لأي مجتمع قضى بأن يكون من بين أفراده متطرف خارج عن قانون الجماعة، يوالى العدو الخارجي ضد رهطه وعشيرته، فيهدد استقرار المجتمع كله ويعرض أفراده للخطر، وهذه جريمة أقرّتها القبيلة قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فحرّمها، وحرم موالاة أعداء الدين والوطن، بل لقد حذر القرآن الكريم من الفرار أو التقاعس والتخاذل في نصرة الوطن، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال:15].

وقد كان هذا دستور الأمة العربية في نظامها العسكري قديمًا وحديثًا. وقد عرض الشعر العربي ألوانًا من الجرائم العسكرية، كان فيها العربي خائنًا لقبيلته أحيانًا وجيشه أحيانًا أخرى، أو متخاذلًا عن نصرته، مستنكرًا هذه الجريمة محذّرًا منها، وسنستعرض ألوانًا من هذه الجريمة في الشعر العربي، والتي بدت جلية في العصر الجاهلي؛ فالعصبيات القبلية شكلت النظام العسكري الأول في حياة الشعر العربي.

فإذا كان الشاعر فردًا من القبيلة يخضع لنظامها، يقع عليه ما يقع على الآخرين، فإن عليه واجبات كما له حقوق، ومن حق القبيلة عليه أن يناصرها في سلمها وحربها، وإذا تقاعس عن هذه الحقوق عُدّ تقاعسه جريمة، لا سيما وقت الحرب، فماذا لو خان عهد القبيلة ووالى أعداءها ساعة الحرب!

تعرض الشعر العربي لهذا اللون من الجرائم، وقبّحه فعلًا وفاعلًا، كتلك الصورة التي تظهر في غدر بنى حنظلة وتقاعسهم عن نصرة شرحبيل بن أسد يوم الكلاب الأول، وفرارهم عنه يوم عسرته، وقد نقل امرؤ القيس ـ وهو ابن أخي شرحبيل ـ هذه الجريمة، وهو يهجوهم ويفضحهم:

أحنظلُ لو حاميتمُ وكرمتمُ لأثنيتُ خيرًا صادقًا
ولكن أبى خذلانكم فافتضحتمُ ولأرضَانِي
وقد كان أصفاكمُ بأخلصِ وخَبثتم من سعيكم كل إحسانِ
ودّه على غيركم فكنتم شر
وكم مطرت كفّاه من فضلِ خلصانِ
نائلٍ له فيكمُ فاش، وكم فكّ من
أحنظلُ لا شكر بصالحِ عانِ
فعله ولا عفة إذ نصركم خاذل
فألفيتمُ عند الجوارِ أذلة وانِ
أحنظلُ هذا ذِكر ما قد فعلتمُ وعيدانكم في الجهدِ أخورَ
سأوقِدُ حتى يعلم الناس غدركمُ عيدانِ
وأبتمُ بلا غنمٍ ولا بسلامةٍ وأجلوكم وجه الحديث بتبيانِ
بمشهورةٍ فوقَ العلاءِ
بنيرانِ
فيا شرَّ أتباع، ويا شرَّ
إخوانِ

(ابن حجر، 1984، ص157)."كانت العداوة قد بلغت أشدها بين شرحبيل وأخيه سلمة، بفعل المنذر الذي عاد إلى الحيرة بعد هلاك قباذ، وأخذ يغري بين الأخوين، وسار شرحبيل ومن معه حتى نزلوا الكلاب، وأقبل سلمة فيمن معه، فاقتتل القوم اقتتالًا شديدًا، وثبت بعضهم لبعض، ورهن كل منهما مائة من الإبل لمن جاء برأس أخيه، ثم كانت الغلبة لسلمة وأتباعه بعد غدرة بني حنظلة بعهدهم مع شرحبيل، فخلوه وحيدًا حتى لحقه أبا حنش فقتله، وأخذ رأسه وبعث بها مع ابن عم له إلى سلمة"

(البجاوي، وأبو الفضل، والمولى، 1942، ص48).

ومن هذه صور لوم وتعريض وتعيير سعد بن مالك البكري للحارث بن عباد، وقد اعتزل قومه وتخلى عن نصرتهم يوم البسوس بين بكر وتغلب، فانثلم اتحاد العشيرة، قال عامر بن الطفيل:

ولقد لحقت بخيلنا فكرهتها وصددت عن خيشومها
فبني فزارة قد علون بِكَلكلٍ المستكلبِ
غادرن منهم تسعةً في والحي أشجع قد رمين بمنكبِ
معركٍ وثلاثة قرّنهم في المشعبِ

(ابن الطفيل، 1979، ص78). يوبخه على تخلفه واعتزاله الحرب وقد لحقت أوائل الخيل فولى عنها، فكانت النتيجة أن علت الصدر، وألقوا عليهم أثقالهم، فتركتهم وخلفتهم قتلى وأسرى.

ومن ألوان الجريمة العسكرية غدرة بني سهم بني عدوان وبني عبد عمرو، وقد اشتركوا مع خصومهم ضد بني عمهم ورئيسهم الحصين بن الحمام المري يوم دارة موضع، فجاءت الحرب نتيجتها عكس توقعاتهم؛ إذ ظفر الحصين، وانهزموا وأحلافهم، وقتل منهم فأكثر(الجندي، 1966، ص164).

وفى ذلك يقول الحصين بن حمام الفزاري:

(الضبي، 1964، ص 64). ومنه ما ورد في أيام العرب عن غدرة بني سليط وفرارهم وانصرافهم عن أصحابهم يوم قشاوة يقول مالك بن نويرة يهجوهم:

(المثنى، 1998، ج1، ص183). قبحهم ودعا عليهم لفرارهم وانصرافهم عن الحرب، لذا فقد رجعوا سالمين لم تصبهم الجراح، فليس لهم عذر عنده بعد فرارهم وتخاذلهم، يقول متمم بن نويرة اليربوعي:

فيا لعبيدٍ خلقة إنَّ خيرَكم بجزُرَةَ بين الأعشيين
غَدرتُم ولم تُربع عليه مُقيمُ
ركابُكم كأنكُم لم تُفجعوا بعظِيمِ
وكنتُ كناتِ البوِّ ريعتْ وهل تنفَعَنها نظرةٌ
فرَجّعت وشميمُ
أطافت فسافت ثم عادت ألا ليس عنها سَجُرها
فرجّعت بصريمِ

(الضبي، 1964، ص127). والبوّ: ولد الناقة، وجلد الحوار يحشى ثمُامًا ويقرب من الناقة لتعتقد أنه فصيلها، فتعطف عليه وتُدِرّ. وقد يعترف الشاعر بخيانته وفراره، ومن ذلك ما روى عن "وعلة الجرمي" يحكى قصة فراره يوم الكلاب الثاني، معتذرًا عن خيانته وتخاذله عن نصرة قومه، يصرّح بأنه إنما فر لما رأى العدو أكثر جمعًا وأعظم قوة، وقد تأكد أن مقاومته لن تكون إلا حمقا وجهلا، وستكون نتيجتها فقد حياته أو أسره وسوء معاملته، أو وسمه بسمة الخزي والعار بسبب الأسر وما قد يحدث له من متاعب وآلام، يقول:

فِدىً لَكُما رجْليّ أمّي غَداةَ الكُلابِ إذ تُخرُّ
وخالَتي الدَّوابِرُ
نَجَوتُ نَجاءَ لم يَرَ النَّاسُ كَأني عُقابٌ عِندَ تيَمَنَ

مِثْلَهُ كاسِرُ
ولَمَّا سَمِعْتُ الخيلَ تَدعو مُقاعِساً ... تَطالَعَنِي مِن ثُغرةِ النَّحرِ جائِرُ
فإن أستطع لا تَلتَبِسْ بي مُقاعِسٌ ... ولا يَرَني مَبدَاهُمُ والمحاضِرُ
ولا تَكُ لي حَدَّادَةٌ مُضَرِيَّةٌ ... إذا ما غَدَت قُوتَ العِيَالِ تُبادِرُ

(الضبي، 1964، ص132). أو ما اعتذر به قبيصة النصراني عن إحجامه وتأخره عن نصرة قومه، ملقيًا باللوم على حصانه، مدعيًا أن نفرته كانت السبب في نكوصه:

ألم تَرَ أنَّ الوَردَ عَرّدَ صَدرُهُ ... وَحَادَ عنِ الدَعوى وضَوء البِوارِقِ
وأخرَجَني من فتيةٍ لم أرِد لهُم ... فِراقاً وهُم في مَأزِقٍ مُتضايِقِ
وَقَضَّ عَلى فاسِ اللجِامِ وعَزَّني ... على أمره إذ رَدَّ أهلُ الحقَائِقِ
فقُلتُ لَهُ لَمَّا بَلَوتُ بَلاءَهُ ... وإنّي بِمَتعٍ من خَليلٍ مُفارِقِ
أُحَدِّثُ من لاقَيتُ يوماً بَلاءَهُ ... وهُم يَحسِبونَ أنَّني غيرُ صادِقِ

(التبريزي، ج1، ص247). هكذا رأى الشعر العربي الخيانة العسكرية والتولي يوم الزحف جريمة عسكرية، وقف منها موقف المستنكر المستقبح، ملحقًا بالخائن الجبان العار والخزي، لا يثنيه عن ذلك عذر أو قرابة، حتى لو كانت أمه، كقول أم أبي جدابة في ابنها وقد انضم إلى المنصور قائد كسرى في حربه ضد قبيلته بنى شيبان:

بئسَما ربّيته مِن ولدٍ ... قَد رجوتُ النصرَ فيه عاقَه مَقدور سوءٍ فَانثَنى ... والظفر
قبّح الله لباني إنّه ... وارتَوى بِالعارِ والرأيِ
أيّها الناسُ أَفيقوا ... الأشر
وانظروا ... كَلبانِ البكرِ من بغلٍ أَغرّ
فَلَقد جاءَ بِأمرٍ مُشتهر

(يموت، 1934، ص26). يصور النص جريمة عسكرية تتمثل في التمرد على منظومة الأعراف القبلية؛ حين قاد أحد أفرادها عدوه إلى إخضاع الشيبانيين. وتستهجن الشاعرة سلوك ابنها السلبي من خلال هجائه وتجريده من رتبة الإنسانية إلى الدرك الأسفل من البهائمية، فتصوره بالبغل في خلقه الدنيء وسلوكه القبيح، مشيرة إلى دونية تصرفه غير السوي الذي يجب التنبه إليه والحذر منه:

أيّها الناسُ أفيقوا وانظروا ... فَلَقد جاءَ بِأمرٍ مُشتهر

فالخطاب موجه إلى ما هو أعم من القبيلة، فخيانة القبيلة سلوك شاذ مرفوض يستوجب التحذير كما استوجب العقاب.

الجريمة الاقتصادية:

تعدُّ الجريمةُ الاقتصادية أحدَ أنواع الجرائم المنظمة التي "تقوم على تكوين مشروع إجرامي لجماعات من الأشخاص؛ لتحقيق هدف طويل المدى، هو الحصول على كسب اقتصادي من خلال الطرق والأساليب غير المشروعة" (ربيع وآخرون، ص193)، وتتعلق بالسطو على الأموال العامة، والتعدي على الاقتصاد القومي، وتعطيل عمليات الإنتاج.

وتتوزع ألوان الجريمة الاقتصادية في الشعر العربي بين نوعين من اللصوص؛ يشكل الأول منهما الصعاليك، بينما يشكل الآخر فريق الشطار والعيارون والدعار والحرافيش كجماعات فوضوية ضاقت ذرعًا بالحياة، ووجدت في غياب القانون وغيبوبة السلطان وضعف العسكر فرصة للنهب والتخريب.

نعرج في اللون الأول على الصعاليك؛ إذ تبقى قضية الصعلكة أهم معالم الجريمة الاقتصادية في الشعر العربي، "ويعدُّ العامل الاقتصادي هو أبرز العوامل المتسببة في الصعلكة"(طريفي، 2004، ج1، ص26).

وبمقارنة سريعة بين مقومات الجريمة الاقتصادية والتكوين النفسي والثقافي والبيولوجي للصعاليك، نجد المعايير نفسها؛ فأسلوب التآمر المنظم بالتآزر، والتنسيق بين عناصر المجموعة المتصعلكة، والأساليب الضارية من تهديد وعنف واحتيال من أجل الحصول على المال، حتى الدوافع واحدة "فالإحساس بالفوارق الطبقية كان عاملًا في اتساع الشروخ الاقتصادية بين الأغنياء والفقراء، زاده تردي أوضاع الفئات المهمشة في المدن وفي البوادي على السواء"(طريفي، 2004م، ج1، ص239).

على أن هذا اللون من الجرائم لم يقتصر على الصعاليك؛ فقد تجاوزه إلى غيرهم مِن كل مَنْ رفض وتمرّدَ على قوانين المجتمع الرأسمالي الربوي، وكل من لم يستطع التأقلم في نسيج الطبقة العليا، وكذلك كل متجرد عن وعيه الشعوري، هارب من رقابة الضمير والدين.

ولهذا نرى اضمحلال هذا الشعور بمجيء الإسلام؛ فما قدمه الدين الحنيف من حلول لمشكلة الفقر قوّضت دوافع السطو وقضت على مظاهر تعطيل الإنتاج من قطع الطرق وإرهاب العاملين بالتجارة، سواء بالترغيب كما في حديث الرسول أنه كاتَبَ بعضَ الصعاليك وأمّنهم إن أسلموا وأصلحوا "فعبدُهم حرٌ ومولاهم محمد، ومن كان منهم من قبيلة لم يُردَّ إليها، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم، وما كان لهم من دين في الناس رد إليهم، ولا ظلم عليهم ولا عدوان" (الزهري، 2001، ج1، ص278). أو بالترهيب كإطلاق مسمى (محاربي الله ورسوله) أو (المفسدين في الأرض) في قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة:33].

أو إطلاق مسمى اللصوصية والسرقة علي مرتكبي هذه الجرائم، يقول تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: 38].

فتغليظ الحدود المتعلقة بهذا اللون من الجرائم كفيل بتطويق نشاطه، ونلمس أثر هذا التغيير في قول أبي

خراشة الهذلي:

فَليسَ كَعَهدِ الدارِ يا أمَّ مالِكٍ ولكِن أحاطَت بالرِقابِ السَلاسِلُ
وعادَ الفَتى كَالكَهلِ لَيسَ بِقائِلٍ سِوى العَدلِ شَيئاً فَاستَراحَ العَواذِلُ

(الأصفهاني، 1962، ج2، ص85). لقد حنّ أبو خراشة إلى صعلكته بعد أن أسلم، وما يمنعه عنها سوى قيود الدين الجديد والخوف من حدوده.

ونطالع صورًا من الفكر الإجرامي عند الصعاليك، نعرض في مطلعه للصوصية أبي النشناس، وهو من لصوص بني تميم، يعترض القوافل في شذا من العرب بين طريق الحجاز والشام فيجتاحها، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيّده مُدةً، ثم أمكنه الهرب في وقت غرة فهرب، فمرّ على غراب على بانة يُنتف ريشه وينعب، فجزع من ذلك؛ ثم مرّ بحي من لهب، فقصّ عليهم ما كان، فقال له اللهبيّ: إن صدقت الطير يعاد إلى حبسه وقيده، ويطول ذلك به، ويقتل ويصلب، فقال له: بفيك الحجر، قال: لا بل بفيك، وراح ينشد قوله:

إذا المرءُ لَم يَسرَح سَواماً ولَم يُرح سَواماً، ولَم يَبسُط لَهُ الوَجهَ صاحِبُه

إلى أن قال:

وسائلَةٍ أينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ومن يسألُ الصُعلوكَ أينَ مَذاهِبُه
مَذاهِبُهُ أنّ الفِجاجَ عَريضَةٌ إذا ضَنَّ عَنهُ بالفعالِ أَقارِبُه
وداوية يهماء يخشى بها الردى سرت بأبي النسناس فيها ركائبه
ليدرك ثأرا أو ليدرك مغنما جزيلا، وهذا الدهر جم عجائبه

(الأصفهاني، 1962، ج2، ص62). فقدَّم أسباب ودوافع ارتكاب جرائمه، فما قطعُه الطريقَ وتلصصُه إلا لما لاقاه من جفاء الأهل الذي تحالف مع ضنك العيش، فخلف صعلوكًا يرى في أطراف المفازة الموحشة مأمنًا، وفي قطعه الطرق وتعطيل حركة الحياة ثأرًا لحظه القليل من دنياه، وكسبًا لرزقه الضائع في وجوه الأرض.

وهي الدوافع نفسها التي حدت بالأحيمر السعدي إلى اللصوصية وقطع طرق التجارة على أصحابها يقول: "كنتُ ممن خلعني قومي، وأطلّ السلطان دمي، وهربت وترددت في البوادي، حتى ظننتُ أني قد جزت نخلَ وبارٍ أو قد قربتهما، وذلك لأني كنت أرى في رجع الظباء النوى، وصرت إلى مواضع لم يصل أحد إليها قط قبلي، وكنت أعشق الظباء والذئاب وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر مني؛ لأنها لم تر غيري قط، وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت" (مروة، 1990، ص106).

ومما روى في شعره أن امرأةً عَيّرته الإعدامَ والفاقةَ فلم ينكر أنه فقير، بيد أن أمَّه الصحراء قريبة ففيها حاجته، كما أنه لصّ ماكرٌ قد سلط سيفه على أموال التجار، قال:

تُعَيّرُنِي الأعدامَ والبدُو معرضٌ وسيفي بِأموالِ التجار زعيمُ

(الآمدي، 1991، ص55). وكم كان يفرح لسماع نهيق الحمر الإنسية؛ فقد كان يستبشر بها؛ لأنها تدله على قرب التُّجار منه، وتدله على دروبهم، قال:

نهقَ الحمارُ فقلتُ: أيمنُ طائرٍ إنَّ الحمارَ من التجارِ قريب

لقد كانت الحرابة دينه وديدنه الذي يفخر به ويتغنى بمهاراته، قال:

فلليلِ إن وَاراني الليلُ حُكمهُ وللشمسِ إن غَابت عليّ نُذورُ
وإني لأستحيي من اللهِ أن أُرَى أجررُ حبلاً ليسَ فيهِ بعيرُ
وأن أسألَ المرءَ اللئيم بعيرهُ وبعرانُ ربى في البلادِ كثيرُ

(الآمدي، 1991، ص56). على هذه الشاكلة كانت نظرة الأحيمر إلى الحياة؛ فكسب قوته بسيفه ومكره أعزُّ من سؤال لئيم أو الوقوف على باب أمير؛ لذا فقد اتخذ الليل مسلكًا لنيل وطره من جرائم السرقة والنهب، لا يعود منه إلا وقد روى غلته ببعير يجر حبله. ونلمس في الشطر الأخير المبدأ العام لهذه الطائفة من المجرمين؛ إذ يؤمنون بأن المال مال الله لا العباد، فكل هذا النعيم حولهم ملكية عامة يحل لهم وطأه وحمله متى شاءوا.

وإذا كان الأحيمر قد تاب فإنه لم يندم على ما اقترف من أفعال اللصوص وصحبتهم، قال:

قُل للصوصِ بَنى اللَخناءِ يحتسِبوا بزَّ العِراقِ ويَنسوا طَرفَةَ اليمنِ
ويَتركُوا الخَزَّ والديباجَ تلبسه بيضُ الموالي ذوَو الأعناقِ والعكنِ
أشكو إلى اللهِ صبري عن زواملِهِم وما ألاقي إذا مَرَّت من الحزنِ
لكِن ليالِيَ نلقاهُم فنسلبهم سَقياً لذاكَ زمانًا كانَ من زمنِ
فرُبَّ ثوبٍ كريمٍ كُنت آخِذه من القِطارِ بلا نَقدٍ ولا ثمنِ

(الآمدي، 1991، ص57). لا تنفك عقيدة اللصوصية تطارد خاطره حتى بعد توبته؛ فإن كان ينصح لصحبته وزملائه في الجريمة بالتوبة والإقلاع عن الذنب، فإنه يشكو فراغ صبره عن صحبتهم في ممارسة نشاطهم، والحنين إلى سالف عهدتهم ومدتهم التي قضوها في السطو على قوافل التجار، مستلذًا نشوانًا بما كانوا يقترفونه من سلب ونهب.

ولعل هذه سجية أكثر الشطار الذين أعلنوا توبتهم؛ إذ كانوا يحنون إلى سالف عهدهم من أعمال السطو وقطع الطرق؛ فهذا تليد الضبي قد بلغ من إجرامه في السطو والشطارة ما لم يبلغه سواه، حتى لو فقد أحدهم أمه لقيل سرقها تليد، قال:

ولو أنّ بَعضَ الناسِ يَفقِدُ أُمَّهُ لقيلَ احتواها في الرِحالِ تَليدُ
لَهِني لأشقى الناسِ إن كُنتُ غارِمًا قلائِصَ بين الجَلهَتَينِ تَرودُ
قلائصُ معزابٌ أتى الليلُ دونها وما الناسُ إلا عاجِزٌ وجَليدُ

(البغدادي، 1997، ج3، ص349). حدت به أفعاله إلى هذه المنزلة التي لا يتورع من ذكرها والتغني بها؛ فقد كان

لا يتورع في سرقة كل ذي حركة وسكون في طريقه من غال ورخيص، لاسيما تلك الإبل والشاء التي تبعد عن أهلها في المراعي، قل عددها أو كثر، ولعل هذا المبلغ الذي أنزله منزلة القيادة والزعامة لمجموعة الشطار تلك.

تاب تليد، بيد أن كان حلم اللصوصية وزعامة الصعاليك لا يزال يراوده، قال:

تَبَدَّلْتُ من سَوَقِ الأباعِرِ في الضُحى   ومن قَصِّ الغِزلانِ بَني المساجِدِ
فأصبحتُ قد أحدثتُ للهِ توبَةً   وخَيرَ عِبادِ اللهِ في زِيِ عابِدِ
عَلى أنَّ في نفسي إلى البيضِ طربَةً   وأنِّي قد أهوى رُكوبَ الموارِدِ

(البغدادي، 1997، ج3، ص350). فهو وإن أعلن توبته عن عربدته وسرقته البعران في وقت الضحى إلا أنه لا ينفك يعاوده الحنين إلى أيام شقوته، وتهزه رياحُ الإجرام إلى صحبة المجرمين ومزاولة نشاطهم في السرقة التي كانوا عليها، ويبدو أنه مضمر لهذه العودة، عازم على أن ينقض ثوب التوبة، يقول:

يقولون جاهد يا تليد بتوبةٍ   وفي النفس مني عودة سأعودها
ألا ليت شعري هل أقودنّ عُصبةً   قليلًا لربِ العالمينَ سُجودها
وهل أطردنّ الدهرَ كما عشتُ هجمة   معرضةَ الأنجادِ سجحًا خُدودها
قُضاعيةٍ حم الذرى فتربعتْ   حمى جَرْشُ قد طَار عنها لُبودها

(البغدادي، 1997، ج3، ص350). رغم نصح الناصحين له بالتوبة ومجاهدة النفس إلا أنه لا زال ينزع إلى الجريمة كأنه معاقرها عاكفٌ عليها.

ومن العجيب أن بعض مجرمي هذا اللون يفخرون ويتفاخرون بأعمالهم الإجرامية، حتى ليحسب أن الانتماء لهذه الطائفة مصدرَ تيهٍ ودلالةَ بطولة، فيروي الأصفهاني أن أعرابيًّا من الصعاليك سئل: أتسرق بالنهار؟ فقال:

معاذ الله من سرقٍ بليلٍ   ولكني أجاهر بالنهار

(الأصبهاني، 1953، ج1، ص190). هذا النوع من المجرمين يمكن تصنيفه "كمجرم (سيكوباتي) لا يستجيب انفعاليًّا بعد ارتكاب أي فعل من شأنه أن يظهر الشعور بالحياء والخجل والعار والذنب، ويتصل بهذا عجز عن التعلم من الخبرات التي يمرُّ بها، بل حتى العقاب، ويستمر في عمل الأنشطة المضادة للمجتمع حتى بعد أن يثبت له عدم نجاحها" (العيسوي، 1994، ص22).

نتناول نماذج من اللون الأول نعرج في بدايتها على بغداد، حيث أحداث الفتنة الكبرى التي وقعت بين الأمين والمأمون سنة 196هـ، ومن أحداثها تلك الحرب التي نشبت بين العجم والعرب، حتى ثار العامة في بغداد؛ دفاعًا عن الخليفة الشرعي، ونقل ابن الأثير صورة بغداد وقتها فيقول: "ونقب أهل السجون، وخرجوا منها، وفتن الناس، وساءت حالهم، ووثب الشطار على أهل الصلاح" (ابن الأثير، 1966، ج6، ص268-269). من التجار والقادة والأشراف، واتخذ الغوغاء والفساق -حسب تسمية ابن الأثير - من بغداد خزانة ينهبونها؛ ذلك أن حاتم بن الصقر من قادة الأمين قد أباحهم النهب ... وعجز طاهر بن الحسين عن دخول بغداد بسببهم، فظل يقاتلهم، لا يفتر عن ذلك ولا يمله، ولا يعنى فيه" (ابن الأثير، 1966، ج6، ص273). ودارت معارك بين الطرفين، نهب خلالها العيارون والشطار بغداد، وينقل المسعودي هذه الصورة على لسان بعض العيارين من أهل بغداد ومن أهل السجون:

لنا من طَاهِرٍ يومٍ   عظيمُ الشأن والخطب
علينا فيه بالأنجاد عن هرثمة   ومنا لأبي الطيبِ يوم صلق الكلب
أتاه كُلَّ طرارٍ   ولِصٍ كَان ذا نَقَب
وعَريان على جنبَيهِ   آثارُ من الضربِ
إذا مَا حَلَّ من شَرَقٍ   أتيناهُ من الغربِ

(المسعودي، 1976، ج3، ص401-402). خرب الشطار والغوغائيون بغداد بما اقترفته أيدهم من نهب وسرقة إضافة إلى مقاومتهم السلطة والعسكر من جند طاهر، حتى أضحت بغداد منهوبة مسلوبة، وفي ذلك يقول عمرو بن عبدالملك العتري:

قَدِمَ الشّورَجينُ للقَتْلِ عمدًا   قالَ إنّي لَكُم أريدُ الإماره
فَتَلَقَّاهُ كل لِصٍ مريبٍ   عَمَرَ السّجنَ دَهرهُ بالشطاره
كُلُّ من كانَ خَاملًا صارَ رأسًا   من نَعيمٍ في عيشِهِ وغضاره
حاملٌ في يمينِهِ كُلَّ يومٍ   مطردًا فوقَ رأسِهِ طياره
أخرَجتهُ من بَيتِها أُمُّ سوءٍ   طلب النهبَ أمّهُ العَيّارَه
يَشتُمُ الناسَ ما يُبالي   بإفصاحٍ لذي الشتمِ لا يُشيرُ إشارَه
ليسَ هذا زمانُ حُر كَريمٍ   ذا زَمانُ الأنذالِ أهلِ الزَعارَه

(المسعودي، 1976، ج3، ص406). وصف المعترين من العيارين والزعار والشطار لاصقًا بهم تُهَمَ النهبِ والتخريب، واصفًا طبقتهم الدونية ونشأتهم السوقية، قد اغتنى فقيرهم بفضل ما سلب ونهب، متخذًا من ذلك السلب سببًا للإمارة، فنراه يسوس الناسَ بما تربى عليه من قبح وشتم، فكأن الزمن تحول ببغداد من دار الكرم والمجد الرفيع، إلى دار للشطار والعيارين والسوقة واللصوص.

خاتمة البحث

من خلال رحلة البحث والاستقصاء السابقة، نخرج ببعض النتائج، أهمها:

1- عكس الشاعرُ نسجَ مجتمعه، فَشِعْرُه أنسجةٌ تألفت من شعوره وفكره وقيم مجتمعه الحضارية، وليس مجردَ تعبيرات فلسفية أو خيالية أو منطقية ارتبطت مقدماتها بنتائجها؛ لذا لا نبالغ إن صُنف الشعرُ من حيث الأهمية كبقية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتصويره الفرد جده وهزله، انحرافه واستقامته.

2- تعرف الجريمةُ بأنها كل سلوك ينتهك القواعد الأخلاقية التي وضعت لها الجماعة جزاءات سلبية تحمل صفة رسمية، كما يعرف المجرمُ بأنه ذاك الفرد الذي ينتهك القوانين والقواعد الجنائية في مجتمع ما مع سبق الإصرار، أو هو الشخص الذي يرتكب فعلًا غير اجتماعي سواء كان بقصد ارتكاب جريمة أم لا. ويشمل هذا المعنى كل من ينتهك الأعراف أو يتصرف على نحو يخالف المعاييرَ الاجتماعية.

3- تختلف الجريمةُ حسب جسامتها بين جنحة وجناية، كما يختلف المجرمون حسب سلوكهم الإجرامي؛ إذ ثمة فارقٌ بين المخالفة والجريمة والجنحة، كما أن هناك فرقًا بين الجرائم نفسها؛ فهناك جرائم سياسية، وجرائم عسكرية، وجرائم ضد الأموال، وجرائم عامة ضد الأشخاص.

4- يأتي الانحراف الخلقي والسلوكي محصلةَ فشلِ الفرد في التوافق مع القيم والمعايير ومختلف أشكال السلوك المقبول في المجتمع، أو الصراع القيمي الناتج عن الصراع بين القيم الموروثة والمكتسبة في المجتمع، أو التفكك على المستوى الاجتماعي عامة والأسري خاصة.

5- للعامل البيولوجي دوره في وجود الجريمة؛ كالخصائص النوعية؛ فأكثر المجرمين رجالًا، كذلك الخصائص الوراثية؛ كالذكاء والغباء، والانفعالية؛ كالاندفاع والحلم، والجسمية؛ كاللون والحجم، كل هذه وغيرها مؤثراتٌ لها دورها في وجود الجريمة، وربما في تحديد نوعيتها ودرجتها الإجرامية.

6- صور الشاعرُ العربيُّ الجريمة في مجتمعه؛ بقصد خلق رؤية فكرية ونفسية واجتماعية لهذه الظاهرة، فكما صور الفكر الإنساني في أوج حضارته صور السلوك الهمجي للمجرمين في المجتمع، فقدم نبعًا تنهل منه كتب التاريخ، وعلم الاجتماع والنفس وغيرها من الدراسات التي عنيت بتأصيل الظواهر ودراسة مسبباتها ومعالجتها.

7- حفل الأدبُ العربيُّ بألوان وصور من الجرائم والعقوبات، لا سيما الشعر الذي كان - ولا زال - سجلَ أيام العرب والشاهدَ على حركاتهم وسكناتهم؛ فقد سجل الشعر العربي ضروبًا من الجرائم السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والعامة بمختلف أشكالها وفنونها.

8- ظهرت الجريمة السياسية كظاهرة انحرافية في الشعر العربي منذ عصوره الأولى، متمثلة بالتمردِّ على السلطة الحاكمة أو القانون الحاكم في القبيلة، أو في عصوره التالية كثورات الأحزاب والفرق السياسية، وقد فسّر الشعرُ العربيُّ هذه الظاهرةَ كسلوك انفعالي ناجم عن دوافع نفسية واجتماعية، انعكست لإظهار اعتراضها ورفضها لسياسة النظام -السلطة الحاكمة- بطريقتين، إما بالتميز وأخذ فرص الاستحقاق بالقوة، كما هو الحال في ثورات العلويين والزبيريين ضد الدولتين الأموية والعباسية، وإما بالتمرد والسلوك العدواني كالصعاليك.

9- إن جلَّ الشعراء الذين أدلوا بدلوهم في هذا النمط الشعري الإجرامي كانوا ناقمين أو راغبين في الانتقام من الدولة ورموزها، كما أن البعض منهم أقحم نفسه في الصراع الفكري المتبادل بين المعارضة والسلطة الحاكمة، بل إنهم اتخذوا هذا المضمار منبرًا للظهور والتسميع، والنتيجة: الانسلاخ من جلد القبيلة والدولة، والتمرد والخروج على الحاكم، الأمر الذي يفضي إلى عقوبة التغريب أو الإعدام.

10- عرض الشعر العربي ألوانًا من الجرائم العسكرية، كان فيها العربي خائنًا لقبيلته أحيانًا وجيشه أحيانًا أخرى، أو متخاذلًا عن نصرته، مستنكرًا هذه الجريمة محذرًا منها، ورأينا ألوانًا من هذه الجريمة في الشعر العربي، والتي بدت جلية في العصر الجاهلي؛ فالعصبيات القبلية تشكل النظام العسكري الأول في حياة الشعر العربي.

11- تتوزع ألوان الجريمة الاقتصادية في الشعر العربي بين نوعين من اللصوص؛ يشكل الأول منهما الصعاليك، بينما يشكل الآخر فريق الشطار والعيارون كجماعات فوضوية ضاقت ذرعًا بالحياة، ووجدت في غياب القانون وغيبوبة السلطان وضعف العسكر فرصة للنهب والتخريب.

12- عدّ مجموعة من شعراء الجرائم الاقتصادية أعمالهم الإجرامية مصدر فخر، حتى ليحسب أن الانتماء لهذه الطوائف مصدرَ اعتزازٍ ودلالةَ بطولة.

13- تفاعل الشعر مع أنماط مختلفة من الجرائم انعكست صورها في جميع جوانبه كالشذوذ الجنسي، وشرب الخمر، وانتهاك الحقوق الإنسانية والبيئية، وهي موضوعات بحثية قابلة للدرس والاستقراء لاستنباط بواعثها، والكشف عن حدود تلك الجرائم ودوافعها وما نتج عنها من انحرافات سلوكية عكسها الموروث الشعري على مستوى الفرد والمجتمع.

المصادر والمراجع

إبراهيم، حافظ. (1987). *ديوان حافظ إبراهيم*، (ط3) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

إبراهيم، محمد أبو الفضل والبجاوي، على محمد والمولى، محمد أحمد جاد. (1942). *أيام العرب في الجاهلية*.

بيروت: المكتبة العصرية.
ابن الأثير، أبو الحسن على بن زيد. (1966). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار صادر.
الأصبهاني، الراغب. (1953). *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*، (ط1). القاهرة: مكتبة الهلال.
الأصفهاني، أبو الفرج. (1962). *الأغاني*، (ط3). بيروت: دار الثقافة.
أعشى همدان، عبدالرحمن بن الحارث. (1983). *ديوان الأعشى*، (ط1). الرياض: دار العلوم للنشر.
الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر. (1991). *المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسباهم وبعض شعرهم*. تحقيق: ف. كرنكو. بيروت: دار الجيل.
الأنصاري، حسان بن ثابت. (1994). *ديوان حسان بن ثابت*، (ط2). بيروت: دار الكتب العلمية.
البغدادي، عبد القادر بن عمر. (1997). *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب*. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي.
التبريزي، يحيى بن علي. (د.ت). *شرح ديوان الحماسة*. بيروت: دار القلم.
الجندي، علي. (1966). *شعر الحرب في العصر الجاهلي*، (ط3). بيروت: مكتبة الجامعة العربية.
ابن حجر، امرؤ القيس. (1984). *ديوان امرؤ القيس*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف.
حسين، طه. (1976). *حديث الأربعاء*، (ط2). القاهرة: دار المعارف.
الخزاعي، دعبل بن علي. (1983). *ديوان دعبل لخزاعي، (ط2)*. دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية.
ربيع، محمد شحاته و يوسف، جمعة سيد وعبدالله، معتز سيد. (د.ت). *علم النفس الجنائي*. القاهرة: دار غريب.
الزوزني، حسين بن أحمد بن حسين. (2002). *شرح المعلقات السبع*، (ط1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.
الزهري، محمد بن سعد. (2001). *الطبقات الكبرى*. تحقيق: علي محمد عمر، (ط1). القاهرة: مكتبة الخانجي.
الضبي، محمد بن يعلى بن سالم. (1964). *المفضليات*. تحقيق: أحمد محمد شاكر، (ط4). القاهرة: دار المعارف.
الطبري، محمد بن جرير. (1967). *تاريخ الرسل والملوك*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر: دار المعارف.
الطبري، محمد بن جرير. (د.ت). *تاريخ الطبري*. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف.
طريفي، محمد. (2004). *ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي*. بيروت: دار الكتب العلمية.
ابن الطفيل، عامر. (1979). *ديوان عامر بن الطفيل*. بيروت: دار صادر
العيسوي، عبدالرحمن. (1994). *موسوعة علم النفس والتحليل النفسي*. القاهرة: مكتبة مدبولي.
العيسوي، عبد الرحمن. (2005). *علم النفس والبحث الجنائي*. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي.
غراب، سعيد أحمد. (2014). *الفكر السياسي في الشعر الأموي*. القاهرة: دار المعارف.
الماوردي، أبو الحسن. (1985). *الأحكام السلطانية والولايات الدينية*. بيروت: دار الكتب العلمية.
المثنى، أبو عبيدة بن معمر. (1998). *شرح نقائض جرير والفرزدق*. تحقيق: محمد إبراهيم حور، وليد محمود. أبوظبي : المجمع الثقافي.
مروة، محمد رضا. (1990). *الصعاليك في العصر الأموي أخبارهم وأشعارهم*، (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.
المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين. (1976). *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، (ط1). بيروت: دار الأندلس.
ملحس، ثريا عبدالفتاح. (1996). *القيم الروحية في الشعر العربي قديمة وحديثه*، (ط1). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
ابن الورد، عروة. (1992). *ديوان عروة ابن الورد*. بيروت: دار الكتب العلمية.
يموت، بشير. (1934). *شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام*، (ط1). بيروت: المكتبة الأهلية.